الحلقة السادسة والعشرون

أحمد قنديل

قليلون في هذا العالم على اتساعه.. مَن يُمتعون قراءهم إذا كتبوا.. بمثل ما يمتعون مستمعيهم إن تحدثوا. وقد كان الكاتب الأديب وشاعر الفصحى والعامية الفنان.. الذي عُرف بـ (الأستاذ) في عالم الوظائف الحكومية، وبـ (القنديل) في عالم الصحافة والأدب والشعر والفن.. أحدهم دون شك، أو رابع أربعتهم - بعد الزيدان، والشحاتة، وعبدالله بلخير -، فقد كان حديثه.. رشيقاً لا يُمل، ممتعاً.. إلى حد الإثارة والاستحواذ، موحياً.. تختلط فيه الضحكة بالدمعة، ويتقاطع في ثناياه.. الأسى مع الشجن!! ولذلك كان استحواذه على سامعيه.. سهلاً ميسوراً، فقد كان يأخذهم.. من حكاية لأخرى، ومن موقف إلى ذكرى، ومن استشهاد شعري.. إلى طرفة تصب في ذات الاستشهاد، وكأنها (الجواب) عند مطربي الليالي والمواويل، يساعده في ذلك صوت درامي جميل.. يتمازج فيه الهمس والشجن، ويمده مخزون قصصي روائي لا ينضب، نتيجة.. لتلك الحياة العميقة المتغلغلة والمفعمة بالأحداث.. التي عاشها بين جدة ومكة (مكاناً)، وبين الحربين العالميتين (زماناً)!!

فقد ولد الأستاذ القنديل في عام ١٩١٣م (١٣٣٢هـ).. أي قبيل عام من اندلاع الحرب العالمية الأولى، ولذلك فقد عاش عقدي شبابه الأولين – مع مقدمات وذيول نتائجها من سقوط للدولة العثمانية، فسقوط لدولة الأشراف في الحجاز، فقيام لدولة الملك عبدالعزيز، وما تبعه من وحدة بين شطري الأمة في حجازها ونجدها (١٩٣٢م).. وهو في التاسعة عشر من عمره: ابن من أبناء جدة وبحرها.. وحاراتها وبرحاتها و(صهبتها) ومزمارها و(كَبَتِها) و(خرجاتها) إلى جزيرتي (الواسطة) و(أبو سعد)، وسهر (مقاعدها) و(دواوينها) على الدانات اليمنية والمجارير الطائفية والأغاني المصرية، وطالب من طلاب مدرستها الأولى (الفلاح) التي جمعت أكبر نخب الصف الأول من شعراء وأدباء الأيام الأولى من عمر هذا الوطن.. من أمثال العواد والشحاتة والعارف والحلواني والباحيدر.. ف (القنديل) الذي كان أصغر معلميها وأساتذتها آنذاك سناً، والذي حملته مواهبه الأدبية والشعرية الفذة.. لأن يكون من بينهم.

لقد أعطته (جدة) وحياتها.. مخزونه الشعبي الهائل من القصص والأمثال والتجارب والحكايات: من (أبو عرَّام) إلى (أبو سنكيت) إلى (الدُّجَّيرة) وحكايتها الأسطورية المرعبة، ليتحول ذلك الزاد الثقافي العريض الضاحك الساخر والجميل.. فيما بعد لنصوص شعرية لأول دواوينه العامية (المركاز)، الذي كان يترفع عن التوقيع على قصائده بـ (اسمه الصريح).. عند نشرها منفردة لأول مرة، مخافة أن تلتصق به وبشعره صفة (العامية)..

فكان يوقعها باسم (هو)، ولكنه سرعان ما أدرك بأن العامية والشعبية.. لم تكن تهمة بقدر ما كانت قيمة وشرفاً لمن تملكوا ناصيتها ومقدرتها وأبدعوا فيها وبها، فهذا شوقي أمير شعراء الفصحى.. تتناقل عنه الصحف قولته، التي أطلقها تعبيراً عن قلق الفنان فيه: (إنني لا أخاف على الشعر العربي الفصيح.. إلا من بيرم التونسي، وعاميته)!!

* * *

مع انتقاله إلى العاصمة (مكة المكرمة).. بعد الاستقرار، وإعادة تشكل الوطن، وقيام وزارة المالية.. بضخامة وتعدد مسؤولياتها حتى سميت بـ (أم الوزارات).. بحثاً عن وظيفة، تدنيه منها دون شك مؤهلاته ومواهبه.. وجد أمامه كوكبة واسعة من المثقفين والأدباء والشعراء وقد تجمعوا فيها من كل أرجاء الوطن، فهذا العواد والشحاتة والعارف.. من جدة، وهذا الآشي والعطار والزمخشري والفقي والكتبي من مكة، وهذا الجاسر والمعمر من نجد، وهذا التوفيق والرجب والزيدان والضياء من المدينة المنورة، وهذا العقيلي والسنوسي من جيزان، وإلى جانب هؤلاء صحيفتي (أم القرى) و(صوت الحجاز).. مع ما يخلقه هذا التواجد.. في وزارة واحدة بفروعها المختلفة ومسؤولياتها المتعددة، وما يمكن أن ينبثق عنه من حياة أدبية زاخرة مفعمة.. كتلك التي تناقلتها فيما بعد حكايات مقاهي (الأولمب) و(المركاز) و(البيبان)، والتي كان في طليعتها قيمة وأهمية.. معركة العواد والشحاتة (الشعرية)، والتي انقسم فيها مجتمع العاصمة آنذاك إلى معسكرين: معسكر العواد

وأنصاره من العارف والحلواني والباحيدر.. ومعسكر الشحاتة وأنصاره من القنديل والضياء والعامر.. وما بين المعسكرين من المحايدين من أمثال الزيدان والسباعي والرجب والجاسر والعطار، وإن كان كل من هؤلاء المحايدين.. أراد أن يخفي نصرته لأي من المعسكرين أمام الملأ.. بينما كان الأستاذ عبدالسلام الساسي هو حامل وقود تلك المعركة وأخشابها بين المعسكرين بعد أن امتنعت الصحيفتان عن نشر ما كان خارجاً عن الأعراف والتقاليد من فاحش القصائد المتبادلة، إلا أن نصيري (العواد) و(الشحاتة).. تحملا مسؤوليات نصرتهما للشاعرين في حينه، وبعد أن انطوت تلك الأيام، ولعل قصيدة «صراع» التي كتبها (القنديل)، ونشرها في ديوانه (الأبراج).. تصور طبيعة الحماسة التي كان عليها في نصرته لـ (صديقه الحميم) حمزة شحاتة الذي أهداه الديوان نفسه.. وهو ثالث دواوينه.

على أي حال..

صعد الأستاذ القنديل سلالمه الوظيفية.. بسهولة ويسر، وقد حملته إمكاناته الشخصية إلى ذلك الصعود السهل واليسير حتى أصبح مديراً عاماً لـ(الحج).. وهي وظيفة أقرب إلى الوزارة أو نيابتها منها إلى المديرية العامة، ومع ذلك.. ظل هو وصديقه (الشحاتة) يتبرمان من حالهما وحال الدنيا معهما، التي تعطي (الحلق) لمن لا آذان له!! و(الطعام) لمن لا أسنان لديه..!!

* * *

لقد كتب القنديل الكثير من الشعر.. وأصدر ما يزيد عن العشرة دواوين بالفصحى والعامية.. كان أبرزها ذلك الجهد الذي بذله في كتابه (مكتي قبلتي)، وهو يحمل عنوان قصيدته الشهيرة والجميلة عن (مكة).. إلى جانب قصائد الشعراء الآخرين الذين كتبوا عنها مع ترجمة لحياة كل منهم، لكن ظل أجمل ما كتبه.. هو في تلك القصيدة (الجواب الضائع).. التي قال فيها:

(قال لي والتلال قد لفها الصمت كما لفنا الهوى بردائه

ويميني تحيط عطفيه والبدر مطلٌ واللحظ في اللحظ تائه

وابتساماته تفيض حناناً ودلالاً يزيد فرط بهائه

كيف أحببتني؟ وفسَّر ما قال بإيماءة الهوى وذكائه

فتضاحكت حائراً مستزيداً سؤله المشتهى برغم خفائه

وأستحي، والحياء فن من الحسن، وضاع الجواب في استحيائه)

ولكن ربما كان أصدق ما قاله، وهو يكشف عن طبيعة «الفنان» فيه.. والتي لم تكتف بسماع الموسيقى والغناء وتتبع روائعهما العربية والمصرية منها على وجه الخصوص، بل اتجهت إلى تعلم العزف على (العود) وإجادته.. ومن ثم نقله إلى أقرب أصدقائه (الشحاتة) الذي أصبح بمعرفته الموسيقية التي تنامت بعد ذلك.. وكأنه من كبار الملحنين وأساتذتهم.. لا عازفاً يرضي عاطفته أو طموحه.. عندما عارض قصيدة (يا عروس الروض يا ذات الجناح.. يا حمامة) قائلاً:

(يا ملاك الحب، يا ذات الجمال والرشاقة
ناغني ما شئت، ما شاء الدلال والطلاقة
وارحمي قلباً شكا حر الملال واشتياقه
أطلقي في جوك السحري فكري والخيال
وأطلي من سنى الخلد بشعري بالجمال)

لكن المدهش في حياة «القنديل» الشعرية.. هو تقدمه عام ١٩٤٦م.. إلى مسابقة أجمل قصيدة عربية التي رعتها أم إذاعات العالم في الأربعينات (إذاعة لندن) بين الشعراء العرب من مستمعيها، ليفوز القنديل بقصيدة (البلبل) المنشورة في ديوانه الثالث (أصداء).. بـ (المركز الأول) على مستوى مناطق المملكة، وبـ (المركز الثاني) على مستوى بلدان الشرق الأوسط.

لقد شكل ذلك الفوز.. أحد أهم انطلاقاته فيما بعد. فقد كان فوزه.. اعترافاً بشاعريته.. وأفضليته، حتى إذا قامت إذاعة جبل هندي من مكة (عام ١٣٦٨هـ - ١٩٤٧م).. كان الزمخشري كما كان القنديل.. أهم دعامتين لها.

لقد شاءت المصادفات وحدها.. أن تجمعني ذات ظهيرة - في طريق عودتي إلى البيت - بـ (الأستاذ القنديل).. وهو يلقي في مكتب رئيس تحرير جريدة البلاد الأستاذ عبدالمجيد شبكشي قصيدته (القرية الخضراء) بصوته المليء عذوبة وشجناً، فتمنيت ساعتها لو أن أحداً قام بتسجيلها له.. آنذاك. فقد كان رائعاً ساحراً.. ربما إلقاؤه، وربما القصيدة نفسها، ولكنني لم أعد

لقراءتها.. حتى لا يفسد ما استقر في نفسي بشأنها، لأقرأها ثانية.. قبيل أيام، لأكتشف أنها لا تتحدث عن قرية خضراء موجودة في وطننا.. ولكنها تتحدث عن قرية مفرطة الجمال في خيال شاعرها (القنديل)! لتجمعني به مصادفة أخرى وأخيرة.. عند مدخل (المؤسسة) أيضاً، عندما سألني عن ديوانه الجديد.. إن كنت قد قرأته أو لم أفعل؟ فسألته: ولكن ما اسم الديوان.. يا أستاذ؟

فقال (بلهجته الشعبية العامية الجميلة): (الأفو). وهو يقصد كلمة (نار).. إذ إن ذلك.. كان هو عنوان آخر دواوينه..!

* * *

عندما مات الأستاذ القنديل.. بصورة مفاجئة، أحسسنا جميعاً. بأننا فقدنا (موليراً) عربياً آخر كـ (بيرم).. هو الأستاذ القنديل: صاحب «المركاز» و«أبو عرام» و«القناديل».. التي ظلت تضيء إلى يومنا هذا، وقد غدا صاحبها.. بـ (عاميته) - التي خشي منها ومن تأثيرها على مكانته - شمساً لا تغيب.. ونجمة لا تنطفئ!!